لا سلام ينتظر الفلسطينيين ولا توازن في الاستراتيجية الأمريكية

يحكى في باب الطرائف أن لصا مسلحا داهم في الليل بيت رجل نائم، فاستيقظ الرجل على حركة اللص، وقبل أن يأتي بأية حركة وصل اللص عند سريره، وصوب السلاح نحو رأسه قائلا:

أنت صاح يا ملعون الوالدين؟

فبلع الرجل ريقه، ولشدة ذعره حرك إصبعه بحركة النفي كي لا يتكلم فيثبت على نفسه جريمة الصحو،ثم أغمض عينيه وغطى وجهه باللحاف تخلصا من الموقف كله!

هل هناك وجه شبه أو أكثر بين مسلك هذا الرجل صاحب البيت وبين مسلك الرسمية العربية في الزمن الراهن تجاه هجمة شارون على فلسطين وتجاه النذر البادية من حولنا، والتي تتحدث عن هجمات أمريكية متوقعة على هذا البلد العربي أو ذاك البلد الإسلامي؟

ليس من الضروري أن نجيب بنعم أو لا بخصوص المسلك الذي تبديه الرسمية الحاكمة، ولكن حراجة الوضع في المنطقة إلى الحد الذي تصوره القصة مسألة ليس عليها خلاف. فالكل مغزو في عقر داره. الكل مخترق في عقر داره. الكل منهوب في عقر داره. الكل مهان في عقر داره. الكل يرغب أن يكون المشهد الذي يراه حلما مزعجا، أو أن يكون اللص المسلح قاصدا بيت جاره لا بيته ولا مدخراته المنزلية الخاصة.

ولكن ذلك لا يحل المشكلة ولا يباعد الأخطار المحدقة، بعدما أصبحت محدقة بالجميع.

وفي إسرائيل تزداد شعبية شارون كلما قصف بناية أو اغتال قائدا فلسطينيا. وكان بعض المحللين يعللون هذه الشعبية بأن الجنرال العسكري يوحي للإسرائيليين بالأمن والأمان الذي يحتاجون إليه، لأن لديهم عقدة خوف مزمنة منذ زمن هتلر. وقديما عللوا سقوط بيريز في معركة الانتخابات التي نجح فيها نتنياهو بالعمليات العسكرية التي وقعت في القدس في آخر أيام وزارة بيريز فأوجدت عند الناخبين انطباعا بأنه عاجز عن حمايتهم من شر العمليات. والحقيقة أن العمليات التي سجلت في أيام شارون تزيد كثيرا وكثيرا جدا عن تلك التي حدثت أيام بيريز، ومع ذلك فإن مكانة شارون لم تتآكل، وذلك على الرغم من الوضع الاقتصادي الصعب الذي رافق الوضع الأمني المتدهور.

وزن يوسي ساريد

يرغب الكثيرون في إغماض أعينهم عن هذه الحقيقة. بل وعن الحقيقة الأهم والأكثر توثيقا، وهي أن الوزارة التي يرأسها شارون مكونة من أغلبية مما يدعى بالليكود وما يدعى باليمين الديني. وذلك ما أفرزه الجمهور الناخب ويثابر على دعمه. ولا مفر من رؤية الحقيقة الماثلة وهي أن القاعدة الشعبية الأكثر تطرفا في كره العرب أصبحت لها الأغلبية في الشارع الإسرائيلي قبل أن تصبح لها الأغلبية في الكنيست.

لا ينتظر الفلسطينيين سلام ولكن عناء متجدد. فالمخطط الأمريكي الإسرائيلي المشترك وضع لنفسه أهدافا هي بعينها أهداف أكثر الأحزاب تطرفا في إسرائيل. وذلك واضح ومفهوم ولا يثير الجدل حين نتحدث عن الجانب الإسرائيلي. كما لا يستطيع أحد من أوساطنا التي اعتادت التماس التفاؤل من أي سبيل في الساحة الإسرائيلية أن يجد علامة توحي بأن

(المعتدلين) أمثال يوسي ساريد قد يصبحون ذوي وزن كاف في الشارع السياسي الإسرائيلي فيصلون إلى موقع القرار ويفاوضون الجانب الفلسطيني بشأن سلام وسطي يقدم للباحثين عن الترضية عندنا ما يلزمهم من تغطية لموقفهم. أما الأمريكيون الذين يتحدثون عن حرب طويلة الأمد متعددة الساحات والميادين والأساليب، فما زال الفلسطينيون والعرب يأملون بوجود فارق بين موقفهم تجاهنا وبين موقف الحكومة الإسرائيلية الحاضرة. ولا يرجع هذا الاعتقاد إلى أي سند منطقي، ولكنه يرجع إلى العبارة المضمرة التي تقول ((وماذا نفعل في حال فقداننا الأمل في ا لأمريكيين؟ هل لدينا القدرة على إرغام شارون على أي شيء بالوسائل السلمية أو الحربية؟!)). وربما أسند بعض أصحاب هذه العبارة منطقهم عن طريق آخر، فقالوا إن كولن باول يميل إلى التسوية حقا وإنه ينتمي إلى الحمائم المعتدلين داخل الإدارة الأمريكية الحالية، علينا بالتالي أن نأمل خيرا في مساعيه، وأن نبتهل إلى الله أن ينصره على ديك تشيني الذي أفتى منذ أوائل أيامه بأن اغتيال الفلسطينيين على يد الأجهزة الإسرائيلية عمل مبرر وشرعي.

بعد عهد آيزنهاور

هؤلاء الذين يقضون الوقت في انتظار موقف أمريكي (متوازن) على حد تعبيرهم ينسون نقطتين: الأولى أن ملف المواقف الأمريكية بعد عهد الرئيس آيزنهاور أي منذ عام ١٩٥٦ عامر بالانحياز المطلق لإسرائيل ولأفعال إسرائيل ولأقوال إسرائيل، وذلك منذ عشرات السنين، وأن هذا الانحياز المفضوح اتخذ في عهد بوش صيغا فاقت ما قبلها. والنقطة الثانية أن الاستراتيجية الأمريكية الحديثة قائمة على فكرة نبتت في الذهن الأمريكي إثر انهيار الاتحاد السوفييتي وتفرد الولايات المتحدة بالتفوق والسيطرة دون منافس. وهي فكرة إعادة ترتيب منطقة الشرق الأوسط بما يتناسب مع المصالح الأمريكية، ولو اقتضى ذلك استخدام القوة دون حساب. إن صيحة الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون حين قال غداة انهيار الاتحاد السوفييتي: ((هذا عصرنا، فلنعشه!)) هي صيحة ذات علاقة أكيدة بما قاله لاحقا جورج تينيت رئيس السي آي إيه مهددا ياسر عرفات في كامب ديفيد: ((إن منطقة الشرق الأوسط بشعوبها وحدودها قابلة للتغيير)). أما أحداث الثلاثاء الحادي عشر من أيلول في نيويورك وواشنطن فكانت بمثابة المفجر الذي حرض شحنة مختزنة سلفا، قوامها الطمع في خيرات المنطقة والكراهية لحضارتها وثقافتها، لتنفجر ولتنشر موجات انفجارها من أفغانستان إلى المحيط الأطلسي. وفي ظل مثل هذه الاستراتيجية يصعب كثيرا تخيل موقف متوازن حقا وصدقا من قبل الولايات المتحدة. بل لقد سحبت الولايات المتحدة أوروبا خلفها في موقف مبالغ في عدائيته ضد الفلسطينيين، على عكس ما كانت أوروبا تحاول أن تبديه في السنوات العشر الماضية.

نخوة المعتصم

أمام ذلك كله هل هناك بديل أمام المنطقة غير لملمة قواها وتنظيم صفوفها والوقوف بوجه استراتيجية العداء والطمع، في موقف يمنع ابتلاع الجميع فردا فردا وفردة فردة؟

هل هناك بديل عن نبذ العداوات والمنافسات المفتعلة بين الإخوة بعضهم وبعض، ووقف هذا الاستنزاف للقوى وللمعنويات؟

ألا تتكلم الأمة التي أيقظها اللصوص من نومها مرة ومرة ومرة، ووخزوها مؤخرا حين استنامت، بأن فجروا في رفح ثلاثة وسبعين منزلا في هذا الصقيع، مخرجين من دفء المنازل خمسمائة فلسطيني، بينهم ثلاثمائة طفل ورضيع على أقل تقدير، أصبح مأواهم الشارع الغارق في الأمطار.